(مَسَّ وَلَمَسَ) في القُرْآنِ الكَرِيمِ
دِرَاسَةٌ على وِفقِ مَنْظُورِ الإيتمولوجيا

م.د. مجيب سعد أبو كطيفـــة
كلية العلوم الاسلامية -جامعة كربلاء

فحوى البحث

بحث استدلالي تأصيلي (ايتمولوجي) يبرز الحاجة الى دراسة الجوانب التاريخية للألفاظ القرآنية وما يرافقها من تغيّر في الدلالة نتيجة اقترانها بموقف معين أو تجربة خاصة أو حالة انفعالية مما يؤدي الى اقتران دلالة هذه الألفاظ بالموقف الذي وردت فيه فصارت تبعث في النفس عند اللفظ بها حالة من النفور أو الاشمئزاز والتقزز فتصبح هذه الألفاظ ذات دلالة ايحائية. وتبرز هذه الألفاظ غالبا في الكلمات ذات المعاني المحظورة مثل الكلمات المرتبطة بالجنس أو موضع قضاء الحاجة أو الموت.

وقد اتخذ السيد الباحث انموذجاً لتلك الألفاظ من كلمتي (مَسَّ) و (لَمَسَ) اينما وردت في القرآن الكريم مثالاً لبحثه الآتي.

الملخص:

تعدُّ أساليب التعبيرات القرآنية ومعانيها ودلالاتها المختلفة ذخيرة لا يمكن أن يحيط بها مثل هذا البحث أو يستقصيها، فيعرف المراد منها، وحسب الباحث أن يلم بأطراف منها ويدلُّ عليها، فهي معينٌ لا ينضب يفتح لذي الذوق والحس اللغوي آفاقاً في فهم الأساليب وطريقة نسجها.

ولكيْ يتمكن الباحث من فهم التعبيرات القرآنية لابدَّ له من أن يحذق النظام الداخلي للغة، إذ إن الاقتصار على البنى التركيبية والصوتية والصرفية والمعجمية غير كافٍ للوقوف على كنه اللغة ومعرفة مرموزاتها، إذ ترتكز اللغة على بنيتين، بنية عميقة تعد أساس التفكير، وهي التي تستوعب المفاهيم، وبنى سطحية تقوم بصوغ المفاهيم على شكل جمل أصولية. من هنا برزت الحاجة إلى دراسة الجوانب التأريخية للألفاظ ومراتب تطورها وما يرافقها من تغير في الدلالة؛ إذ قد تشع من اللفظ الواحد دلالات متعددة نتيجة اقتران هذه الألفاظ بموقف معين أو تجربة خاصة أو حالة انفعالية مما يؤدي إلى اقتران دلالة هذه الألفاظ بالموقف الذي وردت فيه، فصارت تبعث في النفس عند التلفظ بها حالة من النفور أو الاشمئزاز أو التقزز. فتصبح هذه الألفاظ ذات دلالات إيحائية.

وتبرز هذه الألفاظ بصورة أكثر في الكلمات ذات المعاني المحظورة مثل الكلمات المرتبطة بالجنس أو موضع قضاء الحاجة أو الموت.

وفي أمثال هذه الحالات ينبغي استعمال التلطف في التعبير الذي هو الإشارة إلى شيء مكروه أو معنى غير مستحب بطريقة تجعله أكثر قبولاً واستساغة، وهذا ما يعرف بمصطلح «اللامساس».

وهذا ما وجدناه في القرآن الكريم في أثناء بيانه الأحكام الخاصة بالزواج، ووصف الطريقة التي يلتقي بها الزوج بزوجته، وما يترتب عليها من أحكام شرعية. فنرى القرآن الكريم يبيِّن هذه الأحكام باستعمال ألفاظ تعدُّ غاية في التلطف ومراعاة الطباع ومكامن النفس وهذا ما يتناوله بحثنا الموسوم بـ «المَسُّ

واللَّمْسُ في القرآن الكريم دراسة وفق منظور الإيتمولوجيا».

على نحو تفصيلي يأتي في محله من هذا البحث.

المقدمـــــــة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أولِ العابدين، وسيدِ المرسلين، وخاتمِ النبيين، وعلى الأنوارِ الطاهرةِ من آلِ طه وياسين وسلَّم تسليماً وبعد:

فاللغة العربية واحدة من اللغات المكتنزة التي تنماز بالثراء وكثرة الألفاظ والصيغ والأوزان التي يعسر على الإنسان أن يحيط بها إحاطة تامة، فإذا طالعت واحدا من المؤلفات العربية التي اهتمت بجمع الألفاظ التي تدلُّ على معنى واحد مثل كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني أو كتاب فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي أو المخصص لابن سيدة أو غير ذلك من المعجمات القديمة أو الحديثة لتجد أنها تذكر للمعنى الواحد أكثر من لفظ يدل عليه. من ذلك ما أورده عبد الرحمن الهمذاني في باب الكذب قائلا: «يقال: جاء بالكذب، والزور، والبهتان، والأكاذيب، والمَيْن، والبُطل، والعضيهة، والافك،... وتخرَّص، واختلق، وتزَّيد، وأربى، وافترى، وقد زخرف الكذب، ووشَّاه، وزوَّره، وموَّهة، وشبَّهه، ولبَّسه، ونمَّقه، ونمنمه، ولفَّقه، واخترعه»[1]. فذكر للكذب خمسة وعشرين لفظاً. ومثل هذا نجده إذا تصفحنا المخصص لابن سيده في أي بابٍ من أبوابه.

ومما ينبغي الوقوف عليه هنا أن الألفاظ التي ترد في المعنى الواحد لا يعني أن كل لفظ منها يوافق اللفظ الآخر في الدلالة موافقة تامة. وهذا ما سنلحظه في الألفاظ التي تدل على العلاقات الزوجية وتصف الطريقة التي يلتقي بها الزوج بزوجته كـ «زواج، ونكاح، ورفث، وقرب، وعزل، ومباشرة، ومسَّ، ولمس، تغشى، مجامعة ومباضعة...» فهذه الألفاظ وإن اشتركت في الدلالة على وصف الطريقة التي يلتقي بها الزوج

(١) الالفاظ الكتابية، عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: ٥٢.

بزوجته إلا أن لكل لفظ دلالة خاصة به، وهذا سنبينه في لفظتي «لمس»، و«مسَّ» اللتان أفردنا لهما هذا البحث.

التمهيد:

البنيـــــة الداخلية للُّغةِ

وعلم تأصيل الكلمات

المحور الأول: البنية الداخلية للغة:

إنَّ نـزول الـقـرآن الـكـريـم أحـدث ثـورة لغوية أذهلت العرب عما بأيديهم من فنون القول، ونبهتهم إلى فرادة هذا النص القرآني وجمالية الأداء الكامنة وراء تلك التراكيب والأصـوات المكونة لها. فأقيمت في هذا الصرح دراسات عديدة انتظمت مستوياتهـــا الصوتية والصرفية والنحوية والدلاليـــة، فأثمرت نتاجات تشهد بإعجاز القرآن الكريم، وبالقدرة على تمكن هذه اللغة من استيعاب العلوم والمعارف الإنسانية، وتعكس قوة العقل العربي ورسوخه في الأداء والعطاء. وفي هذا ردٌّ على رأي من يرى أنَّ اللغة عاجزة عن التعبير عما يريد أن يفصح عنه الإنسان من أفكار ومشاعر[٢].

إذ أنَّ طاقات اللغـــة العربية غير محدودة لمن يستطيع تفجيرها فتأتي كلماته متخيرة وجمله متوازية وتراكيبه منسجمة وأصـواتـه مـع معانيه متفاعلة. ولهـذا بقيت العربية في ذروة عطائها الذي لا ينضب، وظلت إضـاءتها في قمة ألقها الذي لا يخبو، فكم من لغة قد تقهقرت وتعرضت لعوامل الانحطاط وانحسرت أصالتها لرطانـــة الدخيل المتحكم من اللغات الأخرى، فذابت وخمد شعاعها إلا العربية فلها مددٌ من القرآن الكريم، ورافـد من بحره المتدفق بالحياة، تحسه وكأنك تلمســه، وتعقله وكأنك تبصره فهو حقيقة لا تجحد، فقد مسك القرآن باللسان العربي من الانـزلاق حتى عاد هذا اللسان متمرساً على الإبداع.

فلكي يتمكن الإنسان من التعبير عما يجول في خاطره لابد من أن يتقن النظام الداخلي للغة. فاللغة كما يقول المسدي: «عقد جماعي يلتزم به الفرد ضمنياً بعد أن يحذق استخدام ما تنصُّ عليه بنوده الصوتية

(٢) ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان، ترجمة كمال بشر: ٦.

والصرفية والنحوية والدلالية»[٣].

وإلى هذا المعنى أشار تشومسكي في سياق حديثه عن البنية السطحية والعميقة للغة محددا مسألة الأداء الكلامي والكفاية اللغوية التي تتيح للفرد التوصل إلى نسج جمل كثيرة بوساطة ما يحمل ذهنه من قواعد وسنن لغوية، وقد شرحها الدكتور ريمون طحان بكيفية مفصلة في قوله: «إن البنى السطحية نتيجة آلية وميكانيكية لبنى كانت في الأعماق ودفعتها اللغة إلى سطحها. ويبدو أن البنى العميقة هي أسس التفكير، وهي التي تستوعب المفاهيم، وأن البنى السطحية تقوم فقط بصوغ المفاهيم على شكل جمل أصولية»[٤]. ويرى الدكتور ريمون طحان «أن هناك تماثلاً بين هياكل اللغة وهياكل الذهن، وتصبح البنى الفكرية الخفية قوالب لغوية بارزة، واللسان المرآة الصافية تعكس صورة الذهن»[٥].

وهنا ظهرت الحاجة إلى دراسة اللغة بمنهج وصفي آني يدرس اللغة من جانب بنيتها الداخلية بوصفها نظاماً من الرموز أو مجموعة من الأصوات الدالة على معنى محدد، ولها وظائف ونواميس خفية تتحكم في نظام بنيتهـــا وحركيتها[٦]. «فالمنهج الوصفي الآني يرمي إلى تحليل البنية الداخلية للغة وذلك باستنباط الشبكة التنظيمية التي تبدو كنواميس خفية تنتظم في إطار اللغة»[٧].

واللغة كما يراها جان بياجيه مؤسسة اجتماعية تحكمها نواميس خفية مفروضة على الأفراد، تتناولها الأجيال بضرب من الحتمية التاريخية[٨].

وكان لعلماء اللغة جهود نيرة وذكية في الدرس اللغوي على اختلاف ميادينه، فلقد كانوا يصدرون في دراساتهم اللغوية عن رؤية شاملة انبثقت من تصورهم للغة على أنها وسيلة للتفاهم ووعاء للفكر. وقد تنوعت مساهماتهم في دراستهم ما بين النحو والصرف وتصنيف المعجمات

(٣) اللسانيات «اسسها المعرفية»، للمسدي: ١٠٤.
(٤) الالسنية العربية«ريمون طحان»: ١٤٤.
(٥) الالسنية العربية: ١٤٤.
(٦) ينظر: علم الدلالة، منقور عبد الجليل: ٥٦.
(٧) علم الدلالة «منقور»: ٥٦.
(٨) نقـــلا عن اللسانيات واسسها المعرفية، للمسدي: ١٦١.

والبلاغة.... ولكن حسبنا أن نشير إلى ما يسمى في الدراسات اللسانية بـ «علم الدلالة» أو «علم المعنى»: «semantics».

إذ ظن كثير من الباحثين أنَّه علم لم يكن للعرب معرفة به، فهو بزعمهم علم نمت أصوله وترعرعت في ظل الدراسات اللسانية الحديثة بيد أن كثيرا من الباحثين المنصفين أشادوا بما وصل إليه الدرس اللغوي عند العرب وهم الذين «بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني فحسب، بل قادهم النظر أيضا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخراً بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين»[9]، وقد أُلفت أكثر من دراسة تهدف إلى بيان تناول علماء العربية للمعنى وكيفية اهتمامهم بالمعنى في مختلف صوره موضحة هذه الجهود التي لا تقل أهمية عما نجده عند علماء الدلالة في صورته المعاصرة[10].

والبحث اللغوي منذ بداياته تركز على تحديد المعنى وما يحتويه التعبير القرآني الكريم من معان ومقاصد، فلقد كان همُّ الدراسات العربية بمختلف فروعها ومسمياتها من نحو وصرف وبلاغة ولغة ومعجمات معرفةَ المعنى.

وإن المجال الذي يندرج في إِطار البحث الدلالي يمكن حصره في دراسة طرفي الفعل الدلالي «الدال والمدلول»، وما يتفرع من ذلك من أبحاث تخص الدال من جهة والمدلول من جهة أخرى والعلاقة التي تجمع بينهما، «وبناء على هذه الدراسة حدد موضوع علم الدلالة الذي يضم مباحث لغوية مختلفة ومتباينة لكنها مترابطة ومتكاملة»[11]. وعلى الرغم من تباين آراء علماء الدلالة حول جوهر العملية الدلالية فإن البحث الدلالي أخذ

(٩) التفكير اللساني في الحضارة العربية «المسدي»: ١٦١.

(١٠) ينظر على سبيل المثال: البحث الدلالي، د. محمد الصغير، علم الدلالة عند العرب، د. عليان الحازمي.

(١١) علم الدلالة، د. منقور: ٥٦.

مسارات جديدة بعد وقوع التأكيد أن اللغة هي نظام تتضافر فيه جملة من الأنظمة الفرعية كنظام البنى التركيبية ونظام البنى المعجمية والبنى الصوتية والبنى الدلالية، ضمن نسق محكـــم أطلق عليه العلماء مصطلح النحو الكلي»[١٢].

أما الغربيون فقد كان نصيب المعنى قليلاً في دراساتهم حتى عام ١٨٩٧م الذي أعلن فيه العالم الفرنسي بريال«Breal» ميلاد علم يختص بالمعنى في اللغة، وهو علم الدلالة الذي أتى ليسد تلك الثغرة في الدراسات اللغوية التي تهتم بشكل الكلمات ومادتها، ونجد ذلك في قوله: «إن الدراسة التي ندعو إليها القارئ هي من نوع حديث للغاية بحيث لم تسم بعد، نعم لقد اهتم معظم اللسانيين بجسم الكلمات وشكلها، وما انتبهوا قط إلى القوانين التي تنظم تغيَّر المعاني وانتقاء العبارات الجديدة والوقوف على تاريخ ميلادها ووفاتها. وبما ان هذه الدراسة تستحق اسما خاصا بها فإننا نطلق عليها اسم: « semantique»

(١٢) علم الدلالة، د. منقور: ٤٥.

للدلالة على علم المعاني»[١٣].

فعلم الدلالة عند العالم بريال «يُعْنى بتلك القوانين التي تشرف على تغير المعاني، ويُعاين الجانب التطوري للألفاظ اللغوية ودلالاتها، ويكون بريال بذلك أول من وجه الاهتمام إلى دراسة المعاني ذاتها»[١٤].

فإذا كانت الصوتيات واللغويات تدرسان البنى التعبيرية وإمكانية حدوثها في اللغة، «فإن الدلاليات تدرس المعاني التي يمكن أن يعبر عنها من خلال البنى الصوتية والتركيبية»[١٥].

إلا أن المشكلة الأزلية التي واجهتْ علماء اللغة هي تحديد المعنى، إذ أن الاقتصار على البنى الصوتيـــة والصرفية والمعجمية والتركيبية غير كاف للوقوف على كنه المعنى الحقيقي للَّفظ، بل لابد من الوقوف على الجوانب النفسية والاجتماعية والتاريخية التي تحيط باللفظ؛ لأن الألفاظ قد تُؤول من قبل المتلقي

(١٣) نقلا عن علم الدلالة، د. منقور: ٤٣.
(١٤) علم الدلالة، د. منقور: ٤٣.
(١٥) علم الدلالة، بيار جيرو، ترجمة منذر العياشي: ٧٢.

إلى معانٍ غير التي أرادها المتكلم؛ لذا يحدث الخلاف بسبب عدم فهم المعنى مما يؤدي إلى إثارة الخلاف، وجعل المعنى عرضة للاجتهادات والتأويلات فيفسر بتفسيرات متعددة. وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى هذه المشكلة في حديثه عن الدلالة المركزية والدلالة الهامشية للمعنى موضحاً أن الدلالة المركزية هي: «القدر المشترك من الدلالة الذي يسجله اللغوي في معجمه»[١٦]. أما الدلالة الهامشية فهي: «تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم»[١٧]. فضلا عن هذا،فان هناك نوعاً من المعاني تتعلق بكلمات ذات مقدرة خاصة على الإيحاء نظرا لشفافيتها[١٨].

وتبرز الألفاظ ذات الدلالة الإيحائية بصورة أكثر في الكلمات المرتبطة بالجنس وبموضع قضاء الحاجة وكذا الألفاظ الخاصة بالموت و.... «فأصبح من الصعب أن تستعمل كلمة «حانوتي وكنيف ولباس» التي هجرت من معناها الأقدم للإيحاءات التي صار يحملها معناها الأحدث»[١٩]. وفي أمثال هذه الحالات ينبغي استعمال «التلطف في التعبير» الذي هو عمليا «الإشارة إلى شيء مكروه أو معنى غير مستحب بطريقة تجعله أكثر قبولا واستساغة»[٢٠]. وهذا ما يعرف بمصطلح «اللامساس»[٢١].

كما سيرى القارئ في سلسلة البحوث التي سنجريها ـ إن شاء الله ـ في الألفاظ التي تخص العلاقات الزوجية وتصف الطريقة التي يلتقي بها الزوج بزوجته وما يترتب على ذلك من أحكام شرعية كالصيام والحج والظهار والطلاق فضلا عن ما تمرُّ به الزوجة من حيض ونفاس وما ينبغي على الزوج أن يفعله في هذه الحالة، فنرى القرآن الكريم يوضح هذه الاحكام الشرعية باستعمال ألفاظ تعدُّ غاية في التلطف ومراعاة الطباع ومكامن النفس،

(١٦) دلالة الالفاظ،، د. ابراهيم انيس: ١٠٧.
(١٧) دلالة الالفاظ: ١٠٧.
(١٨) ينظر: الدلالة الايحائية: ٨.
(١٩) علم الدلالة، د. احمد مختار عمر: ٤٠.
(٢٠) المصدر نفسه: ٤٠.
(٢١) دور الكلمة في اللغة: ١٧٧.

كلفظة «مسَّ» التي سيكون محور الحديث عنها في هذا البحث، و«قرب، وعزل، ولمس، وتغشى، وباشر، ونكح، وحرث، ورفث وغيرها من الألفاظ» التي تخص العلاقة بين الرجل والمرأة التي سنوردها في بحوث لاحقة -إن شاء الله -محاولين أن نتناولها بشيء من التفصيل والتحليل والمناقشة لنبين هل إن لفظة «لامس» في قوله تعالى ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [سورة النساء: ٤٣] تعطي دلالة باشر في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧]، وهل إن لفظة «مسَّ» في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [سورة آل عمران: ٤٧] ترادف لفظة« لامس».

وهنا يأتي دور البحث ليسلط الضوء على هذه الآية مستنيراً بكتب التفسير والحديث واللغة ومشاورة ذوي الاختصاص ليبين دلالة هذه وتلك ووجه العلاقة بينهما وسبب ذكر هاتي بعد هاتيك.

المحور الثاني: علم تأصيل الكلمات «الإيتمولوجيا»:

لو أخذنا أيَّة لفظة من الألفاظ وبحثنا عن معناها نجد أنَّ المعجم العربي يذكر لها أكثر من دلالة وهذا ما وجدناه في لفظة «مسَّ» فهي تأتي بمعنى المسِّ باليد ونحوه. وتأتي بمعنى الشيء المهم، كقولنا: حاجة ماسة. والمس تأتي بمعنى نيل الشيء، من مثل قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ وتأتي بمعنى الجن؛ تقول: بفلان مس، ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[سورة البقرة: ٢٧٥]. والمس هو الماء العذب الصافي وقيل هو الزعاق يحرق كلَّ شيء للوحته. والمس كناية عن الجماع. أَبَيْنَ هذه الألفاظ علاقة وشيجة ومعنى عام يربطها جميعا أم لا توجد علاقة رابطة بينها وأن لكلٍّ دلالته؟.

فالنظرة السطحية لهذه المعاني تقودنا إلى القول إن لفظة «مسَّ» تعدُّ من المشترك اللفظي إذ لا علاقة بين «مسَّ» التي تعني مسَّ الشيء باليد وبين «مسَّ» التي تعني الجن وبين «مسَّ» التي تعني الماء العذب الصافي وبين مسَّ التي تعني الجماع.

من هنا برزت الحاجة إلى دراسة الألفاظ دراسة تأصيلية وهي الدراسة

التي تعرف بـ «الايتمولوجيا» أي: الكشف عن المعنى الحقيقي للكلمة، وهذا ما نادى به أكثر من عالم إذ قال اف. آر. بالمر: «إن الناس مهتمون بالايتمولوجيا «التأصيل» أي: اكتشاف المعاني السابقة للكلمات، أو إذا التزمنا بالمعنى الأصلي لكلمة «ايتمولوجيا» اكتشاف المعاني الحقيقية باقتباس أحدث أصل لكل كلمة»[٢٢]. ويرجع الاهتمام به كما ذكر بالمر إلى قرون عديدة، وهذا ما أكده في قوله: «ويرجع الاهتمام بالايتمولوجيا لقرون عديدة. فقد جاءت أول مناقشة جادة لهذه المسألة في كتاب كراتلس «cratylus» لإفلاطون»[٢٣]. غير أن البحث عن المعنى الأصلي للَّفظة لا يخلو من صعوبة إذ «أن جزءًا من الصعوبة التي يواجهها الرجل الاعتيادي يعود إلى ان الكلمات غالبا ليست كما تبدو عمليا»[٢٤].

فإذا اعتمدنا في دراستنا على هذه المنهجية فقد يمكن أن نجد حلا لمشكلة اللفظ والمعنى «الدال والمدلول» الذي تتعدد دلالاته وتتطور. وهذا ما سنحاول اتباعه في دراستنا لهذين اللفظين من خلال البحث عن الأصل الذي ترجع إليه جميع معاني لفظة «مسَّ» ولفظة «لمس» كما سيتضح في سطور هذا البحث الذي جاء في مبحثين وعلى النحو الآتي:

المبحث الأول:

اللمس والمس بين اللغويين والمفسرين:

قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٦- ٢٣٧].

نزلت هذه الآية، كما ذكر المفسرون، لبيان الأحكام المتعلقة بالطلاق في حالة معينة وهي حالة كون الزوج قد مسَّ الزوجة أم لم يمسها، وهذا يعني أنَّ بيان

(٢٢) علم الدلالة، اف. آر. بالمر: ترجمة: مجيد الماشطة: ١٤.
(٢٣) المرجع نفسه: ١٤.
(٢٤) المرجع نسه: ١٤.

هذه الأحكام يتوقف على معرفة دلالة «مسَّ» التي اختلف المفسرون واللغويون في تحديد دلالتها وذكروا لها معاني تبدو متباينة لحدٍ ما فضلا عن أنهم عدُّوا لفظة «مسَّ» أنها ترادف لفظة «لمس» إذ لم نجد في حدٍّ إطلاعنا مَنْ فرَّق بين اللفظتين تفريقا دقيقا. وإنَّ ما اطلعنا عليه من تفريق لا يمكن الاعتماد عليه في الوقوف على كنه اللفظ والوصول الى الحكم الشرعي المنشود من الآية التي نزلت في صدد بيان حالة معينة.

وكان ما ذكره المفسرون في تحديد دلالة «مسَّ» مشابه لما ذكره اللغويون وأصحاب المعجمات. ولبيان دلالة «مسَّ» وما ينضوي تحتها من دلالات وإشارات وما يترتب على المواضع التي ترد فيها من أحكام رأى الباحث أن يفرد بحثاً خاصاً لها ليعرض فيه آراء اللغويين والمفسرين للفظة «لمس» ولفظة «مس» ليتسنى له التفريق بين اللفظتين وذلك على النحو الآتي:

أولا: دلالة لفظة لمس:

يمكن الوقوف على دلالة لفظة «لمس» من خلال المحورين الآتيين:

المحور الاول: دلالة لفظة لمس في اللغة:

دأب المعجميون في ذكر دلالات كثيرة للفظة الواحدة وهذا ما لم نلحظه في لفظة «لمس» التي اقتصر فيها المعجميون على دلالتين فقط الأولى ذهبوا فيها إلى دلالة «لمس» على طلب الشيء، وهذا ما ذكره الخليل في قوله: «اللَّمْسُ: طلب الشيء من ههنا وههنا»[٢٥]، وعند ابن دريد أنَّ أصل اللمس كان باليد ثم توسعت دلالته بعد ذلك، إذ قال: «اللمس أصله باليد.. ثم كثُر حتى صار كلُّ طالب متلمساً»[٢٦]، ومثل هذا قول ابن فارس: «اللام والميم والسين أصل واحد يدلُّ على تَطَلُّبِ شيءٍ ومسيسه، تقول: تلمستُ الشيء إذا تَطَلَّبته بيدك»[٢٧]. بيد أن ابن فارس لم يفرق بين «اللمس» و«المس» إذ قال: «ولمست إذا مسست. قالوا: وكلُّ ماسٍّ لامس»[٢٨] وهذا ما نجده عند اللغويين كافة عند

(٢٥) العين، مادة «لمس».
(٢٦) جمهرة اللغة، مادة لمس.
(٢٧) معجم مقاييس اللغة، مادة لمس.
(٢٨) معجم مقاييس اللغة، مادة لمس.

ذكرهم لدلالة «لمس»[٢٩]، فهم لا يفرقون بين اللفظتين، وعندهم أنَّ «لمس» ترادف «مس». أما الدلالة الثانية للفظة «لمس» فهي دلالتها على الجماع، قال الصاحب بن عباد: «اللمس: كناية عن الجماع»[٣٠]، وأكد الزمخشري هذه الدلالة في قوله: «ومن المجاز: لمس المرأة، ولامسها: جامعها»[٣١]. وهنا ظهرت الحاجة لتسليط الضوء على لفظة «مس» لتحديد أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين لفظة «لمس».

المحور الثاني: دلالة لفظة «لمس» عند المفسرين:

وردت لفظة «لمس» في القرآن الكريم أربع مرات منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الأنعام: ٧].

وقد وظفت لفظة «لمس» في هذه الآية للدلالة على اللمس باليد، وما يؤكد هذه الدلالة ذكر لفظة اليد بعد ذكر لفظة «لمس» في قوله تعالى ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا ما ذكره البغوي بقوله في تفسير هذه الآية: «ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة؛ لأنَّ اللمس أبلغ في إيقاع العلم من الرؤية»[٣٢]، ومثل هذا قول ابن عطية الأندلسي: «((فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ)) يريد أنهم بالغوا في مَيْزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب»[٣٣]. ويؤكد الشنقيطي دلالة لفظة «لمس» على اللمس باليد في قوله: «ذكر في هذه الآية أنَّ الكفار لو نزل الله عليهم كتاباً مكتوبًا في قرطاس أي صحيفة إجابة لِمَا اقترحوه... فعاينوا ذلك الكتاب المنزل ولمسته أيديهم لعاندوا»[٣٤].

ومع وضوح دلالة لفظة «لمس» على

(٢٩) ينظر: تهذيب اللغة، لمس، والصحاح، لمس، والمحيط في اللغة، لمس، وأساس البلاغة، مادة لمس.

(٣٠) المحيط في اللغة، مادة لمس.

(٣١) اساس البلاغة، مادة لمس.

(٣٢) معالم التنزيل: ٣/ ١٢٩، ومفاتيح الغيب، الرازي: ٦/ ٢٢٥.

(٣٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: ٢/ ٣٨٢، و: بحر العلوم، السمر قندي: ٢/ ٢٣.

(٣٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: ١/ ٤٩١، و: البحر المديد، ابن عجيبة: ٢/ ١٢٦.

اللمس باليد إلا أنها لما وردت في سياق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [سورة الجن: ٨] نجد بعض المفسرين يذهبون إلى أن اللمس مأخوذ من المس، وأن العلاقة بينهما علاقة ترادف، ومن ثم فلا اختلاف في المعنى بين اللفظتين، ونجد مصداق هذا في قول الشيخ الطوسي في تفسير هذه الآية: «... ثم حكى أن الجن قالت: ((وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ)) أي: مسسناها بأيدينا»[٣٥]. ومثل هذا قول الزمخشري في تفسير اللفظة الواردة في هذه الآية: «اللمس: المس، فاستعير للطلب؛ لأن الماس طالب متعرف، يقال: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه،... والمعنى بلوغ السماء واستماع كلام أهلها»[٣٦]، وقريب من هذا قول ابن حيان الأندلسي: «((وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ)) أصل اللمس: المس ثم استعير للتطلب، والمعنى بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها»[٣٧]. ونجد مثل هذا الرأي عند الألوسي في قوله: «((وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ)) أي: طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها، واللمس قيل: مستعار من المس»[٣٨].

ويجري الأمر نفسه في الآيات الأخرى التي وردت فيها لفظة «لمس» إذ نجد أن المفسرين يفسرونها بلفظة «مس».

فإذا كانت لفظة «لمس» ترادف لفظة «مس» الى هذا الحد بحيث لا يوجد أي فرق بين دلالة اللفظتين، ولِمنتج النص أن يستعمل أيَّ لفظة مكان الأخرى من دون أن يؤثر ذلك في المعنى أو يغير في سياق النص إذن لماذا يغاير النص القرآني في استعمال اللفظتين؟. ولماذا يستعمل لفظة «لمس» في بعض الموارد ويستعمل لفظة «مس» في موارد أخرى؟. ولماذا لا يقتصر القرآن على استعمال إحدى اللفظتين ويترك الأخرى إذا كانت دلالة اللفظتين واحدة؟.

(٣٥) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي: ٩/ ١٤٣، ومجمع البيان، الطبرسي: ٩/ ١٣١.

(٣٦) الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٧٥.

(٣٧) البحر المحيط: ١٠/ ٣٥٦، و: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٥/ ٣٣٤.

(٣٨) روح المعاني: ٣/ ٢٤٥.

للإجابة على هذه التساؤلات اقتضت طبيعة البحث أن نسلط الضوء على دلالة لفظة «مس» عند اللغويين والمفسرين ومحاولة استكناه دلالتها القرآنية للوقوف على الفرق بين دلالتها وبين دلالة لفظة «لمس».

ثانياً: دلالة لفظة «مسَّ»:

يمكن ان نقف على دلالة لفظة مس من خلال المحاور الآتية:

المحور الاول: دلالة لفظة مس في اللغة:

تعددت المعاني التي أوردها اللغويون للفظة «مسَّ» فهي تأتي بمعنى المسِّ باليد ونحوه[٣٩]. وتأتي بمعنى الشيء المهم، كقولنا: حاجة ماسة[٤٠]. والمس تأتي بمعنى نيل الشيء[٤١]، من مثل قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾. وتأتي بمعنى الجن؛ تقول: بفلان مس[٤٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]. والمس هو الماء العذب الصافي وقيل هو الزعاق يحرق كل شيء لملوحته[٤٣]. والمس كناية عن الجماع[٤٤].

فالناظر إلى ما أورده اللغويون من معانٍ للفظة «مسَّ» من أول وهلة يحسب أنها متباينة في دلالتها غير متفقة في معناها فضلا عن أنهم عدُّوا لفظة «مسَّ» ترادف لفظة «لمس»؛ فـ «مسَّ» عند الخليل كما ذكرت آنفاً تعني «المسِّ باليد ونحوه»[٤٥]، وقريب من هذا قول ابن دريد: «المس: المس باليد»[٤٦].

بيد أن الذين يذهبون إلى أن لفظة «مسَّ» ترادف لفظة «لمس» يرون أنَّ «مسَّ» لا تطابق «لمس» في الدلالة مطابقة تامة، بل يوجد بين اللفظتين بعض التغاير، قال ابو هلال العسكري: «الفرق بين اللمس والمس: أن اللمس يكون باليد بخاصة؛ ليعرف اللين من الخشونة

(٣٩) العين، الخليل «مس».
(٤٠) تهذيب اللغة، الازهري «مس».
(٤١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس «مس».
(٤٢) المحكم والمحيط العظم، ابن سيدة «مس».
(٤٣) اساس البلاغة، الزمخشري.
(٤٤) الصحاح، الجوهري «مس».
(٤٥) العين «مس».
(٤٦) الجمهرة، ابن دريد، «مس»، والقاموس المحيط، «مس».

والحرارة والبرودة، والمس يكون باليد وبالحجر وغير ذلك ولا يقتضي أن يكون باليد»[٤٧]. وقال الصاحب بن عباد: «المسُّ كاللمس ولكنَّ المس يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، واللمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس»[٤٨]. وقد فرَّق بينهما نور الدين الجزائري قائلا: «الفرق بينهما أن اللمس لصوق بإحساس، والمس لصوق فقط. وقد يكون اللمس بمعنى المس»[٤٩] وقد ذهب إلى هذا الرأي طائفة من اللغويين وأصحاب المعجمات[٥٠].

معنى هذا أنَّ جلَّ اللغويين متفقون على أن لفظة «مسَّ» ترادف لفظة «لمس» بيد أنَّ الضابط الذي وضعوه للتفريق بين اللفظتين هو كون «مسَّ» تقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، في حين أن «لمس» تقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس.

(٤٧) الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري: ٤٨٦.

(٤٨) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد «مس».

(٤٩) فروق اللغات في التميز بين مفاد الكلمات/ نور الدين الجزائري: ٢٠٤.

(٥٠) ينظر: تهذيب اللغة «مس»، و: اساس البلاغة «مس»، و: الصحاح «مس».

وهذا يعني أنك إذا طلبت شيئاً غير موجود في حال طلبه فهو «مسَّ» أما إذا طلبت شيئاً موجوداً في أثناء طلبه فهو «لمس» ولم يتبين لنا الأساس الذي استندوا إليه في وضع هذا الضابط، كما أنهم لم يبينوا لنا هل إن جميع معاني لفظة «مسَّ» ترجع إلى أصل واحد يجمعها في معنى عام أو أنها لا ترجع إلى أصل واحد ومن ثمَّ فهي من المشترك اللفظي؟.

المحور الثاني: دلالة لفظة «مسَّ» عند المفسرين:

لم يتفق المفسرون على معنى محدد للفظة «مسَّ» التي وردت في القرآن الكريم في ستين مورداً منها ما جاءت فيه مفردة ومنها ما جاءت فيه مضافة إلى ضمير الغائب أو المخاطب أو ضمير الجمع أو نون النسوة، فنجد أنَّ المفسرين قد اعتمدوا في تحديد دلالة «مَّس» على المورد الذي ترد فيه، فلما وردت في سياق النهي عن الاقتراب من ناقة صالح في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [سورة هود: ٦٤] قرروا أن لفظة

«مسَّ» هنا فيها دلالة على ما يكون فيه مقدمة للعذاب وموجب لنزول البلاء؛ أي أنَّ «مسَّ» لا تعني حصول العذاب واستشعاره والإحساس به وإنما تدل على ما فيه تمهيداً للإصابة به، وتحذيرا من الوقوع فيه وهذا ما نلمسه في قول البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: «نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر»(٥١).

وقريب من هذا ما ذهب إليه البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ قائلا: «ولما أمرهم بتركها -ترك الناقة- أكد الأمر بنهيهم عن أذاها فقال: ((وَلَا تَمَسُّوهَا)) فضلا عما بعد المس»(٥٢).

وفي الموارد التي جعلها البيضاوي والبقاعي مقدمة للإصابة بالسوء نراها عند من سبقهم كالزمخشري مثلاً تدلُّ على ما فيه نوع من التخفيف أو فيما هو دون العذاب، وبعبارة أدق أقل شدة في العذاب، وهذا ما نلمسه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [سورة الانبياء: ٤٦]، إذ قال: «لئن مستهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا»(٥٣). فالزمخشري يرى أن القرآن الكريم استعمل لفظة «مس» لدلالة على ضيق صبر الذين كفروا إذ إنهم إن أصابهم أدنى عذاب جأروا إلى الله فهو يرى أن في استعمال «مسَّ» مبالغة في وصف قلة العذاب؛ إذ قال في تتمة تفسيره لهذه الآية: « وفي المس والنفح ثلاث مبالغات؛ لأن النفح في معنى القلة والنزارة»(٥٤).

ومثل هذا ما ذهب إليه الزركشي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة هود: ١١٣] إذ قال: «فإنه سبحانه لما نهى عن الركون إلى الظالمين وهو الميل إليهم والاعتماد عليهم وكان دون ذلك مشاركتهم في الظلم، أخبر أن العقاب

(٥١) انوار التنزيل واسرار التاويل، البيضاوي: ٢/ ٢٧٦.

(٥٢) نظم الدرر، البقاعي: ٣/ ٢٢٧.

(٥٣) الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٢٢٨.

(٥٤) المصدر نفسه: ٤/ ٢٢٨.

على ذلك دون العقاب على الظلم وهو مس النار الذي هو دون الإحراق والاضطرام»[٥٥].

ومن موارد استعمال «مسَّ» للإشارة إلى الإصابة بما هو دون العذاب أو أقل شدة في العذاب ما ذهب إليه ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[سورة النحل: ٥٣] إذ قال: «أُسْتعير المس للحصول الخفيف للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث أنه يجأر إلى الله لحصول أدنى شيء له»[٥٦]. وزاد ابن عاشور قائلا: «وتقدم استعمال المس في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾»[٥٧] [سورة النحل: ٥٣]. متناسياً أن هذه الآية نزلت في المشركين الذين يتخذون الأصنام آلهة لهم من دون الله، بدلالة الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [سورة النحل: ٥١] فالآية تصف حال المشركين وما يؤكد ذلك الآية التي تلت آية المس وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل: ٥٤]، ومعروف أن المشركين يلجأون إلى أصنامهم إذ أصابتهم أدنى مصيبة ولا يلجأوون إلى الله تعالى إلا إذ وقعوا في مصيبة تكون سبباً لهلاكهم كأن تهب عليهم الريح العاتية وهم في وسط البحر، فتنقطع بهم السبل عند ذاك يلجأون إلى الله تعالى.

ففي المواطن التي يرى فيها الزمخشري والزركشي وابن عاشور أن «مسَّ» لا تدلُّ على الاستشعار الكامل بالعذاب وإنما على ما هو دون ذلك نجد أنَّ البغوي يذهب إلى أن لفظة «مسَّ» تدلُّ على تحقق الإصابة بالعذاب وحصول الاستشعار الكامل به، إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [سورة البقرة: ٨٠] إن لفظة «مسَّ» تعني هنا الإصابة»[٥٨]. فهو يرى أن «مسَّ» هنا

(٥٥) البرهان، الزركشي: ٣/ ٣٧٩.
(٥٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢/ ٤٧٧.
(٥٧) المصدر نفسه: ٢: ٤٧٧.
(٥٨) معالم التنزيل، البغوي: ١/ ١٣٨.

تدل على تعرضهم للنار وإصابتهم بها لا إلى ما هو دون ذلك من العذاب.

وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة هود: ١١٣] إذ قال في تفسير «تمسكم»: «أي: تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم ومالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم»[٥٩].

فواضح من هذا أنَّ القرطبي يرى أنَّ «مسَّ» هنا تدلُّ على الاستشعار الكامل بالعذاب.

وهناك من ذهب إلى أن «مسَّ» تدل على مطلق الإصابة من دون تقيد بضعف أو شدة، وهذا ما نجده في قول أبي حيان الأندلسي: «المس: الإصابة، والمس: الجمع بين شيئين على نهاية القرب»[٦٠]. وقد شرح ابن عاشور ذلك في قوله: «المس: مجاز في الإصابة؛ لأن حقيقة المس وضع اليد على الجسم، فاستعمل في الإصابة بجامع الاتصال كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة الانعام: ٤٩] فهو دال على مطلق الإصابة من غير تقييد بشدة أو ضعف.

ونستفهم هنا أن لفظة «مـسَّ» إن كانت تعني «أصـاب» وإن «تمسكم» تعني «تصبكم» فلماذا فرق القرآن الكريم بينهما في قوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [سورة ال عمران: ١٢٠] فقال مع الحسنة: ((تَمْسَسْكُمْ)) ومع السيئة: ((تُصِبْكُمْ))؟. فلو كانت لفظة ((تَمْسَسْكُمْ)) ترادف لفظة ((تُصِبْكُمْ)) فلماذا فرق بينهما القرآن الكريم؟!.

ويجري الأمر نفسه على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] التي قال الفراء في شرحها: «المس: الجنون، يقال: رجل ممسوس»[٦١]. وقال البيضاوي في تفسيرها: «((مِنَ الْمَسِّ)) أي الجنون، وهذا أيضا من زعاماتهم أن الجني يمسه فيختلط

(٥٩) تفسير القرطبي: ٩/ ٩٢.
(٦٠) البحر المحيط، ابوحيان الاندلسي ١/ ٤٣٧، و: زاد المسير، ابن الجوزي: ١/ ٤٢١.
(٦١) معاني القرآن، الفراء: ١/ ١٣٢.

عقله ولذلك قيل: جن الرجل»[٦٢]. وقد أوضح الآلوسي المراد من المس في قوله: «((مِـنَ الْمَـسِّ)) أي الجنون، يقال مُس الرجل فهو ممسوس إذا جُـنَّ، وأصله اللمس باليد، وسمي به لأنَّ الشيطان قد يمس الرجل وأخلاطه مستعدة للفساد فيفسد ويحدث الجنون»[٦٣].

ولم يبينوا لنـــا كيف انتقلت لفظة «مــسَّ» من الـدلالـة على كونها مقدمة للإصابة بالسوء أو فيما هو دون العذاب إلى الدلالة على الجنون؟!.

ولمَّـا وردت لفظة «مـسَّ» في سياق قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٩] ذهب بها المفسرون إلى دلالـة «لمـس»، ويفهم هـذا من قول الزمخشري: «((لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)): المعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على طهارة من الناس، يعني: مس الكتاب المكنون»[٦٤]. وأوضـح ابن عجيبة ذلك بقوله: «لا يمسه إلا من كان على طهارة من الناس... ويحتمل أن يريد بالمطهرين: المطهرين من الحدث الأكبر وهو الجنابة والحيض، فالطهارة على هذا: الاغتسال أو المطهرين من الحدث الأصغر؛ فالطهارة على هذا الوضوء»[٦٥]. فهم بهذا يرون أن لفظة «مـسَّ» تـرادف لفظة «لمس» وعلى هذا فإن المقصود «لمس الكتاب» في حين نجد أن القرآن الكريم ذكر في موضع آخر ما يدل على لمس الكتاب باليد ونحوها باستعمال لفظة «لمس» فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سـورة الانـعـام: ٧] فلو كانت «لمس» تـرادف «مـسَّ» لكان استعمال «مـسَّ» في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ واستعمال «لمس» في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ترجيح بلا مرجح وهذا خلاف الحكمة وخلاف ما تنماز به اللغة من لطف في التعبير ودقة في التفريق.

معنى هذا أنَّ جلَّ المفسرين يوافقون اللغويين في كون لفظة «مسَّ» ترادف لفظة «لمس» وهذا ما ذكره المـاوردي في قوله:

(٦٢) انوار التنزيل واسرار التاويل: ١/ ٣٠٥.
(٦٣) روح المعاني في تفسير القـرآن العظيم والسبع المثاني، الالوسي: ٢/ ٣٧٤.
(٦٤) الكشاف: ٤/ ٤٨٧
(٦٥) البحر المديد، ابن عجيبة: ٦/ ٢٣٣.

«المس نظير اللمس»[٦٦]. ولكنه يذهب إلى أنَّ هناك فرقاً لطيفاً بين اللفظتين إذ قال: «الفرق بين المس واللمس، أن اللمس لصوق بإحساس والمس لصوق فقط»[٦٧]. وقد وافقه على هذا الرأي الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي[٦٨].

الـذي يلحظ مما ذكـر في أعـلاه أن المفسرين واللغويين اعتمدوا في تحديد دلالة «مسَّ» على السياق، والمواطن التي وردت فيها لفظة «مسَّ»، فلما ذكرت مع الشيطان قيل: فيها دلالة على الجنون، ولما ذكـرت مع العذاب في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [سورة الانبياء: ٤٦] قيل: إن فيها دلالة على ما فيه نوع من التخفيف عن العذاب أو فيما هـو دون الـعـذاب، ولـما وردت في سياق قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ [سـورة هـود: ٦٤] قرروا أنَّ فيها دلالة على ما يكون مقدمة للعذاب وموجب لنزول البلاء، وعند ورودها في سياق قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ذهـبـوا بهـا إلى دلالـة «اللمس». ولو أنها وردت في سياق آخر لأعطوا لها دلالة أخرى.

ولو حاولنا استكناه الدلالة القرآنية للفظة «مس» لوقفنا على دلالة عامة تجمع المعاني الآنفة جميعها، وهذا ما سنلحظه في المحور الثالث من هذا المبحث.

المحور الثالث: دلالة «مسَّ» في السياق القرآني:

قدمنا آنفا أن المفسرين اعتمدوا في بيان دلالة الألفاظ على التبادر وعلى المورد الذي ترد فيه اللفظة.

يحاول بحثنا الابتعاد عن هذه المنهجية في كشف المعنى، ويبتعد عن التبادر في تفسير المفردات القرآنية، ويعتمد منهجية الاستقراء للاقترانات اللفظيـــة للمفردة القرآنيـــة الواحدة، فيكشف عن مدلول تلك اللفظـة بمتابعة السياقات اللفظية للمفردة القرآنية الواحدة للخروج بمعنى عام لتلك اللفظة.

(٦٦) النكت والعيون، الماوردي: ٤/ ٢٢٧.
(٦٧) المصدر نفسه.
(٦٨) ينظر: التبيان، الشيخ الطوسي ٣/ ٦٠٨، و: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ٥/ ٢٦٤.

والـذي يبـدو أنَّ جميع الـدلالات التي ذكرها المفسرون واللغويون للفظة «مسَّ» ترجع إلى أصل واحد يجمعها في معنى عام ترجع إليه معاني هذه اللفظة جميعها وهو: «ولـوج شيء في شيء آخر والإحساس به واستشعاره استشعارا كاملا».

وهـذا يفسر لنا سبب استعمال نبي الله أيوب عليه السلام هذه اللفظة دون غيرها في مناجاته لربه وهو يبين الرزايا والمصائب التي حلت به من جرَّاء فقدان الأموال والأولاد، وفساد الزرع وهلاك الأغنام والماشية، فضلا عن ما أصابه في بدنه من البلاء الذي أدى إلى نفرة أهله وأبناء قومه منه، وإخراجهم إياه من بينهم، وعدم السماح لامرأته التي كانت تخدمه أن تدخل عليهم خوفًا منهم أن ينتقل إليهم البرص والجذام بالعدوى.

فلما أحسَّ النبي أيوب عليه السلام بشـدة البـلاء وأخـذ منه مـأخـذه، واستشعره استشعـارا كامـلا نادى ربه باستعمال لفظة توصف كل ما حلَّ به وتصوره تصويرا كاملا بقوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[سورة الانبياء: ٨٣].

ويجـري الأمـر نفسه على كل مورد ترد فيه لفظة «مسَّ» وهي تصف العذاب الذي يحل بالمجرمين، ويتغلل في أعماقهم كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾[سـورة القمر: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [سورة الزمر: ٨] وقوله تـعـالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ [سـورة البقرة: ٢١٤] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الاسراء: ٦٧].

وقـريـب مـن هـذا إيـثـار نـبـي الله ابراهيم عليه السلام هذه اللفظـــة على غيرها في تصوير الحالة التي وصل إليها من تَقَدِّم سنّه وتعطل بعض أعضائه وإصابة بعضها الآخر بالضعف، فيقول في معرض الرد على الملائكـة الذين بشروه بغلام قائلا: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ

﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٥٤].

فالكبر قانون طبيعي شـــاء الإنسان أم أبى، والكبر ليس سنًّا محددا من عمر الإنسان، أو وقت زمني محدد إذا بلغه الإنسان أصابه الكبر، وإنما هو مجموعة من الأحوال تتوافر مـــع الزمن وتجتمع للوصول إلى الهدف وهي عملية تدريجية غير محسوسة، فالإنسان لا يحس بكبره، ولكنه يدركه عندما تظهر بعض نتائجه كتعطل بعض الحواس وعدم القدرة على الانجاب و...

ولَمَّا كان إنجاب الولد يتطلب إيلاج نطفة الرجل في رحم المرأة، فهذا يعني أن صيرورة الجنين من دون ولوج النطفة في الرحم شيء غريب؛ وهذا يفسر سبب استغراب مريم العذراء عليها السلام حينما أخبرها جبرائيل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٩] فترد عليه العذراء متعجبة: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٠] إذ إنَّ لفظة «مسَّ» لو كانت دلالتها: «اللمس باليد» كما صرح بذلك الشيخ الطوسي بقوله: «المس واللمس متقاربان»(٦٩)، أو كما صرح الشيخ الطبرسي بقوله: «المس نظير اللمس»(٧٠). فإن مجرد اللمس لا يتسبب بالحمل كما هو معروف.

وإذا سلمنا بدلالة «مسَّ» على المعنى الذي قدمناه -ولوج شيء في شيء آخر والإحساس به إحساسا كاملاً -يمكننا الرد على الرأي الذي ذهب إليه بعض المفسرين في تفسير قولـــه تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ حينما ذهبوا إلى أنَّ «مسَّ» المقصود بها «لمَسَ» وأنه لا يجوز أن يلمس القرآن من كان محدثاً بالحدث الأصغر، أو الأكبر أو كان على جنابة أو حيض، وهذا ما صرح به الزمخشـــري بقوله: «لا ينبغي أن يمســـه إلا من هو على طهارة من الناس يعني مس المكتوب فيه»(٧١). وهذا خلاف ما ذكره ابن عطية مشيراً إلى أنه يجوز للجنب والحائض أن يقرآن القرآن في قوله: «وقد رخَّص بعض

(٦٩) التبيان: ٦/ ١٦.
(٧٠) مجمع البيان: ١٠/ ٢٥٦.
(٧١) الكشاف: ٦: ٤٨٧.

العلماء في مسّه بالحدث الأصغر، وفي قراءته عن ظهر غيب، ولا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخَّص بعضهم للجُنب في قراءته»[٧٢].

الذي يبدو لي -والله أعلم- أنَّ دلالة «مسَّ» على هذا المعنى هي الغوص في معاني ألفاظ القرآن الكريم وسبر أغواره، ومعرفة أسراره، وعجائبه، واستكناه مضامينه وأحكامه، وفهم أخباره وقصصه والاستشعار به استشعارا كاملاً، وهذا ما فهمه الثعلبي بعد طول تأمله في تفسير هذه الآية بقوله: «﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: لا يفهم حقائقه إلا من طهر سره عن الأنوار من الأقذار»[٧٣]. وقريب من هذا ما ذكره الماوردي في قوله: «إنه لا يمسه إلا المطهرون من الذنوب والخطايا»[٧٤].

وقد اختلفوا في المراد منهم، فمنهم من ذهب إلى أنهم الملائكة وهذا ما ذكره الشيخ الطوسي في قوله: «قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: لا يمس الكتاب الذي في السماء إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة»[٧٥]. وقد ذهب الشيخ الطبرسي إلى أن المقصود بهم من لا يشركون بالله طرفة عين في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ معناه في القول الأول لا يمسه إلا الملائكة الذين وصفوا بالطهارة من الذنوب، وفي القول الثاني: إلا المطهرون من الشرك عن ابن عباس»[٧٦]. وقد ذكر الفيض الكاشاني قولا عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام أكد فيه أنَّ المقصود من المطهرين هم الأوصياء المرضيين إذ قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال الإمام علي عليه السلام: لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي»[٧٧]. وهو الرأي الذي يميل إليه الباحث.

ويجري الأمر نفسه على تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] أي يلج

(٧٢) المحرر الوجيز: ٦/ ٢٩٦.
(٧٣) الكشف والبيان ١٣/ ١١٤.
(٧٤) النكت والعيون: ٤/ ٢٢٧.
(٧٥) التبيان: ٩/ ٤٩٧.
(٧٦) مجمع البيان: ٩/ ٣٤٠.
(٧٧) تفسير الصافي: ٦/ ١٢٧.

الجن فيه ويتغلغل في أعماقه ـ والله اعلم ـ

المبحث الثاني:

المس والعلاقة الزوجية:

إنَّ النظام الثنائي هو أحد الأنظمة الداخلة في مشروع الكون؛ فهو النظام الذي يحافظ على استمرار الحركة وفيه يتم التوالد والاستمرار؛ لذا تجد كلَّ فرد من المخلوقات يبحث عن مركز يدور حوله كي يحفظ توازنه، فتجد انجذابه إلى الجنس الآخر لا شعورياً ومن غير سابق تفكير، وهذه الغريزة التي تنشأ معه هي المحرِّكُ والمفسِّرُ لكلِّ حركاته وسكناته، وهذا ما تشترك به أغلب الكائنات البشرية ومنها الإنسان الذي يعدُّ من الأصناف التي تميل دائما إلى التجمّع وتنظيم العلاقات مع من حوله من البشر؛ لذا أرجع علماء النفس كثيرا من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان إلى الوحدة والانعزال عن الآخرين، وقد رأوا أنَّ الزواج يعدُّ علاجا لأغلب هذه الأمراض.

فتكون الزوجة بذلك هي مركز الانسان الذي يدور حوله كفكرة وليست كشخص قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢١].

فلابد من تقرير أصول هذا الازدواج ليثمر الثمرة المرجوة على أكمل وجهها، ويأتي في الغاية المنشودة في أجمل صورتها.

ومثلما ظهرت عناية الشارع الحكيم بالأخلاق فيما شرعه للبشر من عقائد وعبادات، كذلك ظهرت آثار ذلك فيما وصفه من أصول لبناء الأسرة ونظام المجتمع. فنظَّم الأسرة ورتَّب علاقات العائلة على أساس المحبة والسلام.

فحثَّ الشارع على الزواج ورغَّب فيه، وأتى في هذا الباب بأساليب مختلفة في التنويه بشأنه، وبيان فضائله وتحريك الدواعي المثيرة للأخذ بأسبابه.

فالتزوِّج من مقاصد الشارع الهامة؛ إذ به تتكون العائلة وتتحقق المقاصد الهائلة، ويتم التعاون على العمران، وإنَّ أجزاء المجتمع البشري ترتبط فيما بينها على أساس المحبة والنفع العام.

فمن العائلة المبنية على الزوجين

تتفرع أغصان شجرة الأقارب من أبناء وبنات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وأجداد وجدات... ثم إنَّ الأسرة تكون كاللبنة في بناء المجتمع، فكلما كثرت الأسرة وأفرادها ازداد شأن الأمة قوةً وتماسكاً وعلا صيتها.

ثم إن الشارع وراء هذا الترغيب في النكاح وضع قوانين وآداب أوجب على المسلم مراعاتها، والأخذ بها؛ ليكون زواجه زواجاً شرعياً كاملاً. والعمدة في هذا الباب ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة مما له تعلق بآداب الزوجية. فهو المثل الأعلى للكمال الإنساني في جميع أحواله العامة والخاصة، وقد أمرنا باتباعه في جميع ما جاء به ﷺ قولا وفعلاً[٧٨].

وإذا كان النكاح هو الصيغة الشرعية التي يحلُّ للزوج بها أن يعاشر زوجته فإنَّ «المس» هو ما بعد النكاح.

فـ «المس» إشارة إلى المعنى الذي قدمناه سالفاً -«ولوج شيء في شيء آخر والاحساس به واستشعاره استشعارا كاملا» -يقصد به وصفاً للعملية الجنسية التي تحدث بين الزوج وزوجته وتأثيراتها المادية والروحية -والله أعلم-.

وتترتب على عملية الدخول والإنزال التي تحدث بين الزوج وزوجته الأحكام الشرعية التي تحدد المعاملة بينهما. ومن ثمَّ فعدم الدخول والإنزال لا يستوجب العدَّة في حالة الطلاق وهذا ما لخَّصه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٤٩].

وذلك لأن العدَّة إنما شرِّعت لضمان عدم وجود الحمل، فإن حصل الطلاق قبل أن يدخل بها فللمطلقة نصف المهر قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

وفي هذا ردٌّ على رأي من يرى أن لفظة «مسَّ» قد لا يقصد بها الجماع وإن مجرد الخلوة بالزوجة تعدُّ مسَّاً وهذا ما ذكره الزمخشري بقوله: «فإن قلت: إذا خلا بها

(٧٨) ينظر: مجلة الزتونة، المجلد الاول، العدد الثامن، تونس، ١٩٣٦م: ٣٨٦.

خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟. قلت: نعم. عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس»[٧٩]. وهذا ما ذكره أبو حيان الأندلسي أيضا قائلا: «عند أبي حنيفة وأصحابه: حكم الخلوة الصحيحة حكم المسيس»[٨٠].

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بـ «المس» في هذين الموردين هو الجماع وهذا ما ذكره الماوردي والشيخ الطوسي والبغوي وابن الجوزي[٨١]. قال الفراء في قوله: «تماسوهن وتمسوهن واحد وهو الجماع»[٨٢].

وهنا يظهر لطف القرآن الكريم ودقته في انتقاء الألفاظ التي تصف الحالة التي يلتقي بها الزوج بزوجته وتبين الأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والمظاهرة باستعمال ألفاظ تعدُّ غايةً في التلطف ومراعاة الطباع ومكامن النفس وميولها ومدى نفرتها وتقززها من بعض الحالات.

والحمد لله رب العالمين

الخاتمة وأبرز النتائج:

بعد هذه الإطافة والتقلب بين اللغة والمعجمات العربية، وكتب التفسير والحديث تبين أنه كي يتمكن الانسان من التواصل مع أبناء جلدته ومخالطتهم لابدَّ أن يتقن النظام الداخلي للغة؛ لأن البنية السطحية للغة هي نتيجة آلية لبنى كانت في الأعماق. ومعنى هذا أنَّ الاقتصار على البنية السطحية غير كافٍ للوقوف على كنه اللغة ومعرفة مدلولاتها ومن ثمَّ فك عبارة النص القرآني ومعرفة مرادها والتوصل إلى الحكم المرجو منها. وقد تمخض البحث عن أكثر من نتيجة منها:

١. إنَّ جميع الدلالات التي ذكرها اللغويون للفظة «مس» ترجع إلى أصل واحد يجمعها في معنى عام، فهي تصف حالة الاستقرار الكامل لشيء ما في شيء آخر، والإحساس به واستشعاره استشعارا كاملا. وان هذا الفعل لا يقتصر على حالة معينة بل

(٧٩) الكشاف: ٥، ٣٣٩.
(٨٠) البحر الحيط: ٩/ ١٩١.
(٨١) ينظر: النكت والعيون: و: التبيان في تفسير القرآن، ومعالم التنزيل، و: زاد المسير.
(٨٢) معاني القرآن، الفراء: ١/ ١٨٣.

هو حركة عامة. ومن ثمَّ فإنَّ «مسَّ» لا تعد من المشترك اللفظي.

٢. إن لفظة مسَّ ذات حركة تكاملية تبحث عن الاستقرار والاتزان؛ لذا فهي تتصف بما يأتي:

أ. إنها تسعى لإتمام نواقص الحركة، وهذا الإتمام تظهر نتائجه مستقبلا، وهذا يعطي بعدا زمنيا لعملية الإتمام.

ب. إنها حركة تشير إلى وصف حالة التوازن بهدف الوصول إلى الاستقرار.

ج. إنَّ الاستمرارية هي أحد الطرق المؤدية للوصول إلى التكامل. فالحدث إذا وقع مرة واحدة لا نطلق عليه «مسَّ» بل إذا تكرر حدوثه باستمرار فبلغ الذروة أطلق عليه هذا اللفظ كما حدث مع إخوة يوسف عليه السلام الذين بلغ معهم البلاء بحيث إنهم لم يجدوا ما يقتاتون عليه مما اضطرهم إلى أن يجوبوا البلاد شرقا وغربا بحثا عن الغذاء، ونالهم من العناء والمشقة ما أثقل كاهلهم فصور القرآن الكريم حالتهم بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٨٨]. ومثل هذا ما نجده في القرآن الكريم وهو يشجع الرسول ﷺ والذين آمنوا معه على الثبات والصبر ويصور لهم ما تعرضت له الأمم السابقة من البأساء والضراء، حتى أنهم أزعجوا إزعاجا شديدا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الفزع والأهوال حتى ((حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ)) ومن معه ((مَتَى نَصْرُ اللَّهِ)) أي بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، وفي هذا دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العِظَم حتى إن الرسل الذين لا يقارن بصبرهم وضبطهم لأنفسهم لجأوا إلى الله قائلين ((مَتَى نَصْرُ اللَّهِ)) فيصور القرآن الكريم كل ما حلَّ بهم من شدة وبلاء بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ

﴿نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[سورة البقرة: ٢١٤].

د. إنَّ لفظة «مسَّ» آثارها تكاملية ذات أبعاد زمانية، فهي ليست حركة مفاجئة، بل حركة بطيئة مع الزمن نسبياً، فإن كانت مع الكبر، فالكبر لا يحدث فجأة، بل هو قانون طبيعي يحدث تدريجيا كما ذكرت آنفاً، وإن كانت مع البلاء أو العقاب فالعمل فيها يكون على أشده كما حصل مع نبي الله أيوب(عليه السلام)، وإن كانت مع جهنم فهي تشير إلى وصول المذنب إلى اعماق جهنم وتغلغله في لهيبها، وان كانت مع الشر فـ ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾[سورة فصلت: ٤٩] لذا نجده يلجأ إلى الله بكل قواه لينجيه من هذا البلاء فهو الذي: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [سورة فصلت: ٥١]. وإن كانت مع القرآن فهي تشير إلى وصول الفرد إلى أعماق القرآن واستكناه مضامينه.

ه. إنَّ لفظة «مسَّ» ذات طابع مزدوج فهي عنيفة من الداخل وهادئة من الخارج، فهي من الداخل تحاول مواجهة كل العقبات لإتمام الحركة على أحسن وجه، والبعد الزمني يعطي الحركة الوقت الكافي للوصول إلى النتائج فهي شديدة التأثير بالمقابل.

٣. لم تقتصر لفظة «لَمس» للدلالة على وصف العملية الجنسية فحسب إذ أنَّ هناك لفظا خاصاً وضع لاسم هذه العملية.

٤. إنّ خلوة الرجل بالمرأة أو لمس الرجل للمرأة لا يعدُّ مسًّا على المعنى الذي قدمناه.

٥. إنَّ لفظة «مسَّ» وظِّفت كما بيَّنا في تضاعيف هذا البحث لوصف النكاح الفعلي بين الرجل والمرأة، وما يترتب على ذلك من تأثيرات مادية ومعنوية، وأحكام شرعية وقانونية.

أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- أساس البلاغة، لمحمود بن عمر الزمخشري «ت ٥٣٨هـ»، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون/ بيروت، ١٤٣١هـ.
- الألسنية العربية، لريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، ط: ٢/ ١٩٨١م.
- الألفاظ الكتابية، لعبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني (ت٣٢٠هـ)، تحقيق: أميل بديع يعقوب، مط: دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط: الأولى/ ١٩٩١ م.
- البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بابي حيان الاندلسي«ت ٧٤٥هـ»، تح: الشيخ عادل احمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد عوض، ود. زكريا النوقي، ود. احمد النجولي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ١٤٢٢هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للعلامة احمد بن محمد ابن عجيبة «ت ١٢٢٤هـ»، تح: عمر احمد الرواي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط: ٢/ ٢٠٠٥م.
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مط: دار إحياء الكتب العربية، ط: الأولى/ ١٩٥٧ م.
- التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي«ت٤٦٠هـ»، تح: احمد حبيب العاملي، بيروت، ط: ١/ ١٤٣١هـ.
- التحرير والتنوير، للأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- تفسير البغوي المسمى بـ «معالم التنزيل»، للحسين بن مسعود البغوي «ت٥١٦هـ»، إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن العك مط: دار الكتب العلمية-بيروت، ط: الثالثة/ ١٩٨٩م.

- تفسير البيضاوي المسمى بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، للقاضي عبد الله بن ناصر بن عمر بن محمد البيضاوي «ت٧٩١ هـ»، مط: دار الكتب العلمية -بيروت، ط: الأولى/ ٢٠٠٣م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط: ١/ ١٩٨١.
- تهذيب اللغة، لمحمد بن احمد الازهري«ت٣٧٠هـ»، تح: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله بن احمد القرطبي «ت٦٧١هـ»، تحقيق: سالم مصطفى البري، مط: دار الكتب العلمية -بيروت، ط: الثانية/ ٢٠٠٤ م.
- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس/ مكتبة الانجلو المصرية، ط: ٣/ ١٩٧٢م.
- الدلالة الإيحائية في الصيغة الافرادية، د. صفية مطهري، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق/ ٢٠٠٢م.
- دور الكلمة في اللغة، لستيفن اولمان، ترجمة: د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب/ ١٩٨٨م.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الآلوسي، دار إحياء التراث، بيروت -لبنان.
- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي الجوزي«ت ٥٧٩هـ»، دار المكتب الإسلامي، بيروت/ ١٤٠٤هـ.
- علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، لمنقور عبد الجليل، مكتبة الاسد/ دمشق ـ ٢٠٠١م.
- علم الدلالة، د. احمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط: ٥/ ١٩٩٨م.
- علم الدلالة، أف. آر. بالمر، ترجمة: مجيد الماشطة، مطبعة العمال المركزية/ بغداد/ ١٩٨٥م.
- علم الدلالة، بيار جيرو، ترجمة: د. منذر العياشي، دار طلاس/ دمشق، ط: ١١٩٨٨م
- فروق اللغات في التمييز بين مفاد

الكلمات، نور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي الجزائري، حققه وشرحه: د. محمد رضوان الداية، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية.

- كتاب الالفاظ الكتابية، لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني«ت ٣٢٧هـ»، منشورات الارومية، قم.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت ـ لبنان.
- الكشف والبيان، لاحمد بن محمد الثعلبي «ت ٤٢٧هـ»، تح: ابي محمد بن عاشور، دار احياء التراث العربي/ بيروت/ ١٤٢٢هـ.
- اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدي، المطبعة العربية/ تونس، ١٩٨٦م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ أو ٥٥٢هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي -بيروت، ط: الأولى/ ١٩٩٥م
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، مط: دار الكتب العلمية -بيروت، ط: الأولى/ ٢٠٠١ م.
- المحكم والمحيط العظم، لابن سيدة «ت٤٥٨هـ»، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١.
- المحيط في اللغة، للصاحب بن عباد «ت ٣٨٥هـ» تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط: ١/ ١٤١٤هـ.
- معاني القرآن، ابو زكريا بن زياد الفراء «ت ٢٠٧هـ»، تحقيق: احمد يوسف ود. محمد النجار، مط: الهيئة المصرية العامة، ط: الثانية/ ١٩٨٠م.
- معجم الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٦هـ.

- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: ١/ ١٤٠٠هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لابراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن ابي بكر البقاعي «ت ٨٨٥هـ»، ط: ١/ ١٣٩١هـ..
- النكت والعيون«تفسير الماوردي»، لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي «ت ٤٥٠هـ»، راجعه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٢/ ١٤٢٨هـ.